التالية سأحمل في يدي كسوة السهرة لأدفع عنكِ هذه المسبَّة ... إلا أنهما — حين خرجا من الدار — غلب عليها حب التحدي على الرغم من رغبتها في التستر والمداراة، فخرجت وهي آخذة بذراعه كأنما تغيظه هو أو تغيظ المتفرجين!

وتقرأ أوروبا كما تعبد أزياءها، ولكن ماذا تقرأ؟ إن شئت فلا مانع من بيرون وشوبنهور، على شريطة أن يوصيها بقراءتهما رجل يفهمها وتفهمه، وأن تقرأ في ديوان بيرون قصة دون جوان، وأن تقرأ في القصة أنباء خلاعته وعيثه بين مَخَادِع الجواري الحِسَان في قصر السلطان، أما شوبنهور فيجب أن يكون كله على وتيرة مقاله في الحب والشهوة بين الذكر والأنثى وليتشاءم بعد ذلك ما استطاع!

عاطفتها حية غير أنها مشغولة بشاغلٍ واحدٍ، فلا تهمها الشفقة على المظلومين والمنكوبين ولا تهمها المظالم والنكبات، لا لأنها قاسية ولا لأنها مغلقة جاسية، ولكن لأن مكان الشفقة مشغول مستغرق، فلو خلا جانب منه برهة لما استعصى على الشفقة أن تنفذ إليه أو تطغى عليه.

وكأنها الطيارة المحلقة، وكأن نزواتها هي القوة الدافعة لها في الفضاء، فإذا دفعتها فهي ناهيك من حركةٍ وصعودٍ وهبوطٍ، وإن وقفت لحظة فهي حجر ملقى على التراب، ولسان حالها في العواطف الإنسانية أن تقول لرجلها: أشفق أنت وتمرد على الظالم واعن بما تشاء، وأنا وراءك إلى حيث تقودك قدماك.

وهي وثنية في مقاييس الأخلاق كما هي وثنية في التدين، لا تؤمن بالعصمة الإنسانية في أحد ولا في صفة، وشديدة الإيمان بضعف الإنسان مع أضعف المغريات ... استطرد الحديث يومًا إلى جان دارك فقالت هازئة: كم رجلًا يا ترى عرف أنها عذراء؟!

فقال لها همام: إنها عذراء بشهادة الطب وشهادة الخواتين الموقرات.

فقالت: لقد شهد لها أضعاف هؤلاء بالمعجزات، فهل تصدق معجزاتها؟

وكان من دأبها أن تحب الغلبة في المناقشة على طريقة كل أنثى مع تنوع الأسلوب والعبارة، فإذا عزَّ عليها الجواب راغت منه وغيَّرت مجرى الحديث، أو تقول حينًا: أسكتَّني وما أقنعتني! وحينًا آخر: ناقشني يا أخي ناقشني ولكن بحق السماء والأرض عليك لا تكتفني، دع لي يا أخي حرية الكلام! ... فهي تريد جوابًا يروقها ويترك لها باب الكلام مفتوحًا بغير انتهاء.

فلما سألتْه: هل تصدق معجزاتها؟ قال: نعم ... أصدق أنها صنعت المعجزات، وجاءت بخوارق العادات، ولكنها معجزات إنسانية لها أسباب إنسانية، وإن تضاربت فيها أقوال المفسرين من المؤمنين وغير المؤمنين.